سبب هجرة الإمام الحسين(ع) للعراق

<"xml encoding="UTF-8?>

رغم أنَّ الدافع الظاهري لهجرة الإمام (عليه السلام) إلى العراق كانت رسائل أهل الكوفة ورُسلهم ، حتى أنَّ الإمام (عليه السلام) احتجَّ بها عندما واجه الحُرُّ بن يزيد الرياحي وعمر بن سعد ، عندما سألاه عن سِرِّ مجيئه إلى العراق فقال (عليه السلام) : (كَتَبَ إليَّ أهلُ مِصرِكُم هَذا أنْ أقْدِمَ) .

إلاَّ أنَّ السرَّ الحقيقي لهجرته (عليه السلام) رغم إدراكه الواضح لما سيترتب عليها من نتائج خطرة ستودي بحياته الشريفة ، وهو ما وطَّن نفسه (عليه السلام) عليه .

ويمكن إدراكه من خلال الاستقراء الشامل لمسيرة حياته (عليه السلام) ، وكيفيَّة تعامله مع مُجرَيات الأحداث .

إذ أنَّ الأمر الذي لا مَناصَ من الذهاب إليه هو إدراك الإمام (عليه السلام) ما يشكِّله الإذعان والتسليم لتولِّي يزيد بن معاوية خلافة المسلمين ، رغم ما عُرِف عنه من تَهتُّك ، ومجون ، وانحراف واضح عن أبسط المعايير الإسلامية .

وفي هذا مؤشِّر خطر عن عِظم الانحراف الذي أصاب مفهوم الخلافة الإسلاميَّة ، وابتعادها الرهيب عن مضمونها الشرعي .

ومن هنا فكان لابُدَّ من وقفة شجاعة تعيد للأمَّة جانباً من وعيها المُضاع ، وإرادتها المسلوبة ، حيث أن الإمام الحسين (عليه السلام) قد أعلنها صَراحة لمَّا طالبه مروان بن الحكم بالبيعة ليزيد ، فقال (عليه السلام) : (فَعَلى الإسلامُ السَّلام إذا بُلِيَت الأمَّة بِراعٍ مِثل يَزيد) .

نعم ، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : (صِنْفانِ مِن أمَّتي إذا صَلُحا صَلُحَتْ أمَّتي ، وإذا فَسدا فَسَدَتْ أمَّتي) .

قيل : يا رسول الله ومن هما ؟

فقال (صلى الله عليه وآله) : (الفُقهَاء والأُمَراء) .

فإذا كان صَلاحُ الأمَّة وفسادها رَهْن صَلاح الخلافة وفسادها ، فقيادَة مثل يزيد لا تزيد الأمر إلا عَبَثاً وفساداً .

فإنَّ القيادة الإسلامية تتحقَّق بالتنصيص أو بالشورى ، ويزيد لَمْ يملك السلطة لا بتنصيصٍ من الله سبحانه ، ولا بشورىً من الأمَّة .

وهذا ما أدركه المسلمون آنذاك ، حيث كتبوا إلى الإمام الحسين (عليه السلام) رسالة جاء فيها : أمَّا بعد ، فالحمد لله الذي قصم عدوَّك الجبار العنيد ، الذي انتزى على هذه الأمَّة ، فابتزَّها أمرَها ، وغصبها فَيئَها ، وتأمَّر عليها بغير رضىً منها ، ثم قتل خِيارَها ، واستبقى شِرارَها .

ولم يكن الولد – يزيد – فريداً في غَصب حق الأمَّة ، بل سبقه والده مُعاوِية إلى ما هو معروف وليس بخافٍ على أحد .

وإلى تلك الحقيقة المَمْجوجة يشير الإمام علي (عليه السلام) في كتاب له إلى معاوية ، حيث يقول : (فَقدْ آنَ لَكَ أن تَنتَفع باللَّمح البَاصِر من عيان الأمور ، فَقَد سَلكْتَ مَدارج أسلافِك بادِّعائك الأباطيل ، واقتِحَامك غرور المَيْن والأكاذيب .

وبانتحالك ما قَدْ علا عَنْك ، وابتزازِكَ لما قد اختزن دونك ، فراراً من الحقّ وجُحوداً ، لِمَا هو ألزم لك من لَحمِك ودمك ، مِمَّا قد وعاه سمعك ، وملئ به صدرك ، فماذا بعدَ الحقِّ إلا الضَّلال المُبين) .

هذا ونظائره المذكورة في التاريخ دفع الحسين إلى الثورة ، وتقديم نفسه وأهل بيته قرابين طاهرة ، من أجل نُصرة هذا الدين العظيم .

مع عِلمه بأنَّه – وِفقاً لِما لديه من الإمكانات المادية – لنْ يستطيعَ أن يواجه دولة كبيرة تمتلك القدرات المادِّيَّة الضخمة ، التي تُمكِّنها من القضاء على أي ثورة فتيَّة .

نعم ، فإن الإمام الحسين (عليه السلام) كان يدرك قَطعاً هذه الحقيقة ، إلاَّ أنه أراد أن يسقي بدمائه الطاهرة المقدَّسة شجرة الإسلام الوارفة ، التي يريد الأمويُّون اقتلاعها من جذورها .

كما أن الإمام (عليه السلام) أراد أن يكسر حاجز الخوف الذي أصاب الأمَّة ، فجعلَها حائرة متردِّدة ، أمام طُغيان الجبابرة وحُكَّام الجور .

وأن تصبح ثورتُه (عليه السلام) مدرسة تتعلَّم منها الأجيال معنى البطولة والتضحية من أجل المبادئ والعقائد ، وكان كل ذلك بعد استشهاد الإمام (عليه السلام) ، والتاريخ خير شاهد على ذلك .

وكان المعروف منذ ولادة الإمام الحسين (عليه السلام) أنه سيستشهدُ في العراق ، في أرض كربلاء ، وعَرَف المسلمون ذلك في عصر النبي (صلى الله عليه وآله) ووصيِّه الإمام علي (عليه السلام) ، ولذا فقد كان النَّاس يترقَّبون حدوث تلك الفاجعة .

كما أنَّ هناك الكثير من القرائن التي تدلُّ بوضوح على حتميَّة استشهاده (عليه السلام) .

ونذكر من تلك القرائن ما يلي :

الأولى : روى غير واحد من المحدِّثين عن أنس بن الحارث ، الذي استشهد في كربلاء ، أنه قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : (إنَّ ابني هذا يُقتَلُ بأرضٍ يقال لها (كربلاء) ، فمن شَهِد ذلك مِنكُم فَلْيَنْصُره) .

فخرج أَنَسَ بن الحارث ، فَقُتِل بها مع الحسين (عليه السلام) .

الثانية : إنَّ أهل الخبرة والسياسة في عصر الإمام كانوا متَّفقين على أن الخروج إلى العراق يشكِّل خطراً كبيراً على حياة الإمام (عليه السلام) وأهل بيته ، ولأجل ذلك أخلَصوا له النصيحة ، وأصرُّوا عليه بعدم الخروج .

ويتمثَّل ذلك في كلام أخيه محمَّد بن الحنفية ، وابن عَمِّه ابن عباس ، ونساء بني عبد المطلب ، ومع ذلك اعتذر لهم الإمام (عليه السلام) ، وأفصح عن عَزمه على الخروج .

الثالثة : لما بلغ عبد الله بن عمر ما عزم عليه الحسين (عليه السلام) دخل عليه ولامَهُ في المسير ، ولمَّا رآه مُصرّاً عليه قبَّل ما بين عينيه وبكى ، وقال : أستودِعُكَ الله مِن قَتيل .

الرابعة : لمَّا خرج الإمام الحسين (عليه السلام) من مَكَّة لِقِيَه الفرزدق الشاعر ، فقال له : إلى أين يا ابن رسول الله ؟ ، ما أعجَلَك عن الموسم ؟

فقال الإمام (عليه السلام) : (لَو لَمْ أعجلْ لأخذت) .

ثم قال (عليه السلام) له : (أخبِرْني عنِ النَّاس خَلفَك) .

فقال : الخبيرُ سألت ، قلوبُ النَّاس معك ، وأسيافُهُم عَليك .

الخامسة : لمَّا أتى إلى الحسين خَبَر قتل مُسلم بن عقيل ، وهانئ بن عروة ، وعبد الله بن يقطر ، قال (عليه السلام) لأصحابه : (لَقَدْ خَذَلَنَا شِيعتُنَا ، فمَنْ أحبَّ منكم الانصراف فَلْينصَرِف ، ليس معه ذمام) .

فتفرَّق الناس عنه ، وأخذوا يميناً وشمالاً ، حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة ، ونفرٌ يسير مِمَّن انضمُّوا إليه ، ومع ذلكَ فقد واصل (عليه السلام) مَسيرُه نحو الكوفة .

ولمَّا مَرَّ (عليه السلام) بِبَطْن العقبة لِقِيَهُ شيخ من بني عكرمة ، يُقال له : عُمَر بن لوذان .

فسأل الإمامَ (عليه السلام) : أين تريد ؟

فقال له الإمام (عليه السلام) : (الكُوفَة) .

فقال الشيخ : أنشدُكَ الله لمَّا انصرفت ، فوالله ما تقدم إلا عَلَى الأسِنَّة وحَدِّ السيوف .

فقال له الإمام (عليه السلام) : (لَيس يخفَى عليَّ الرأي ، وإنَّ اللهَ تعالى لا يُغلَبُ عَلى أمرِه) .

وفي نفس النص دلالة على أن الإمام (عليه السلام) كان يدرك ما كان يتخوَّفُه غيره ، وأنَّ مصيره لو سار إلى الكوفة هو القتل ، ومع ذلك أكمل (عليه السلام) السير ، طلباً للشهادة ، من أجلِ نُصرة الدين ، وردَّ كَيد أعدائه ، وحتى لا تَبقى لأحدٍ حُجَّة يتذرَّع بها لِتبريرِ تَخَاذُله وضعفه .

وقد كان لشهادة الإمام الحسين (عليه السلام) أثر كَبير في إيقاظ شعور الأمَّة ، وتشجيعها على الثورة ضِدَّ الحكومة الأمويَّة ، التي أصبحَتْ رمزاً للفساد والانحراف عن الدين .

ولأجل ذلك توالت الثورات بعد شهادته (عليه السلام) من قِبَل المسلمين في العراق والحجاز .

وهذه الانتفاضات وإن لم تحقِّق هَدفها في وقتها ، ولكنْ كان لها الدور الأساسي في سُقوط الحكومة الأمويَّة بعد مدَّة من الزمن .

ولقد أجاد من قال : لولا نهضة الحسين (عليه السلام) وأصحابه (رضوان الله عليهم) يوم الطفِّ لَمَا قامَ للإسلام عَمود ، ولا اخضرَّ له عود ، ولأماته مُعاوية وأتباعه ، ولَدفَنوه في أول عهده في لحده .

فالمسلمون جميعاً بل الإسلام من ساعة ثورته (عليه السلام) إلى قيام الساعة ، رَهين شُكرٍ للإمام (عليه السلام) وأصحابه (رضوان الله عليهم) .

بلى ، فلا مُغالاة في قول من قال : إنَّ الإسلامَ مُحمَّديُّ الوجود ، حُسينيُّ البقاءِ والخلودِ .